المضامين الفكريّة في شعر حسّان بن ثابت

وأثرها في تطوير اللّغة الشّعريّة

الدكتور إسماعيل إبراهيم برزنجي

جامعة السليمانية، العراق

الملخص

يحاول الباحث دراسة المضامين الفكريّة الجديدة الّتي شكّلت البنية الدّلاليّة العميقة لشعر حسّان، وأمدّتها بدلالاتٍ وألفاظٍ لغويّةٍ وسّعت آفاق الخيال والمعجم الشّعري لديه من جانبٍ، ومنْ جانبٍ آخر يدرس ما قدّمه الشّعر ببنيته الجماليّة للفكر الإسلامي.

بناءً على هذا، توزّعت مادّة البحث على محورين أساسيّين:

أوّلاً: المضامين الفكريّة وتوسيع البنية العميقة.

ثانياً: المضامين الفكريّة وتطوير اللّغة الشّعريّة.

وفي المحورين كليهما يسلّط الضّوء على التّــأثير المتبادل بين المضامين الفكريّة الإسلاميّة والخطاب الشّعريّ.

المُــقدّمَـــــة:

تَبدُو العَلاقَةُ بَينَ الفِكْرِ وَالشّعرِ فِي الظَّاهِرِ غَيرَ حَمِيميَّةٍ أو عَكسِيَّةً انطِلاقاً مِنْ مَبدَأ ارْتِبَاطِ كُلّ مِنهُمَا بِمَصدَرٍ يُعَــدُّ غَرِيماً تَقلِيدِياً لِلآخَرِ، وَالمَصدَرانِ هُمَا العَقلُ وَالقَلبُ، إذْ يَكُونُ الفِكرُ نِتَاجاً لِنَشاطِ العَقلِ الإنْسَانِيّ وَعَمَلاً رَئِيساً لَهُ، بَينَمَا يَرتَبِطُ الشّعرُ بِالقَلْبِ وَالعَوَاطِفِ النَّاتِجَةِ عَنْهُ، خُصُوصاً عِنــدَمَا أخَــذنَا بِنَظَــرِ الاعْتِبَارِ الأرضِيَّةَ الَّتِي يَتَكَوَّنُ فِيهَا الشّعرُ وهِيَ الخَيَالُ، وَالخَيالُ بِطَبِيعَتِهِ عَــالَمٌ خَاصٌّ يَختَلِفُ عَنِ العَالَمِ الوَاقِعِيّ الَّذِي هُوَ مَيدَانُ العَقلِ، بَلْ أكثَرُ مِن ذَلِكَ؛ يُحَطّمُ الخَيالُ الأقِيسَةَ العَقلِيَّةَ وَالقَواعِدَ المَنطِقِيَّةَ، وَيَتَّخِذُ مِن مَقَاييسِهِ الخَاصَّةِ بِهِ فِي تَولِيدِ الشّعرِ.

لَكِنَّ الأمرَ يَقِلُّ حِــدَّةً عِندَمَا نُدخِلُ عُنصُراً آخَرَ فِي العَلاقَــةِ بَــينَ الفِكــرِ وَالشّعرِ، حَيثُ يُقَرّبُ بَينَهُمَا وَيُقَــوّي أحَدَهُمَا بِالآخَرِ؛ ألا وَهُوَ اللُّغَةُ، فَاللُّغَةُ تُشكّلُ مَيدَاناً مُشتَرَكاً لِنَشاطِ كُلّ مِنهُمَا وَتُقِيمُ بَينَهُما عَلاقةً تَبَادُلِيَّــةً، إذْ يَستَفِيدُ الفِكْرُ مِن جَمَالِيَّاتِ اللُّغَةِ الشّعرِيَّةِ وَصُوَرِهَا الفَنّــيَّةِ آلِيَّةً لِلتَّجَــلّي، وَيُرَوّضُ بِهَا خِطَابَــهُ العَقلانِيّ، وَفِي مُقَابِلِ ذَلِكَ يَأخُذُ الشّعرُ مِنَ الفِكرِ الرَّصِينِ مَوضُــوعاتٍ عَدِيــدةً لِلمُعالَجَةِ وَيُوسّعُ بِهَا آفَاقَهُ الدَّلالِيَّةَ، كَمَا أنَّهُ يَأخُذُ أَلفَاظاً وَتَعابِيرَ لُغَوِيَّــةً تُثــرِي المُعجَمَ الشّعرِيَّ وَتُساعِدُ عَلَى الدّقَّــةِ فِي التَّعبِيرِ بِتَوفِيرِ أنسَبِ الأَلفَاظِ وَالكَلِماتِ لِلدَّلالاتِ المُرادِ الإفصَاحُ عَنهَا.

وَقَد حَدَثَ هَذَا كَثِيراً عِندَ الشُّعَراءِ فِي مَراحِلَ تارِيخِيَّةٍ مُختَلِفةٍ عِندَ ظُهُــورِ الأفكَارِ الجَدِيدَةِ وَالفَلسَفَاتِ المُختَلِفةِ، وَجَاءَ اختِيَارُ شِعرِ حَسَّانِ بنِ ثَابِتٍ أنمُوذجاً لِهَذِهِ الظَّاهِرَةِ كَونَهُ يُمَثّلُ مَرحَلَةً مِفصَلِيَّــةً فِي تارِيخِ الأدَبِ العَرَبِيّ، إذْ وَاكَــبَ حَسَّانُ ظُهُورَ الإسلامِ وَانْتِشارَهُ فِي الجَزِيرَةِ العَرَبِيَّةِ، وَأخَذَهُ فِكراً وَعَقِيدةً وَدِيناً،

وَلاَ شكَّ أنَّ لِهَذَا الحَدَثِ الكَبيرِ فِي حَياتِهِ ولانتِقالِهِ مِنَ الجَاهِلِيَّةِ إلَى الإسلامِ أثراً بالِغاً فِي شِعرِهِ كتَأثيرِهِ فِي فِكرِهِ وعَقيدَتِهِ، فأخَذَ يُجَسّدُ مَبادِئَ الإسلامِ ومَفاهِيمَهُ فِي شِعرِهِ، ويَنهَلُ مِنْ يَنابِيعِ الآياتِ الكَريمَةِ وَالأحَادِيثِ الشَّريفَةِ، مَا أدَّى إلَى إثرَاء تَجرِبَتِهِ الشّعريَّةِ شَكلاً ومَضمُوناً.

مِن هَذَا المُنطَلَقِ يُحاوِلُ البَحثُ دِرَاسَةَ المَضَامِينِ الفِكريَّةِ الجَدِيدَةِ الَّتِي شكَّلَت البُنيَةَ الدَّلاليَّةَ العَمِيقةَ لِشعرِ حَسَّان، وَأمَدَّتهَا بِدَلالاتٍ وَألفَاظٍ لُغَويَّةٍ وَسَّعَت آفَاقَ الخَيالِ وَالمُعجَمِ الشّعرِي لَدَيهِ مِن جَانِبٍ، ومِنْ جَانِبٍ آخَرَ يَدرُسُ مَا قَدَّمَهُ الشّعرُ بِبُنيَتِهِ الجَمَاليَّةِ لِلفِكرِ الإسلامِي مِن فَتحِ مَجَالٍ فَنّيّ لِنَشرِ الأفكَارِ الجَدِيدَةِ فِي حُلَّةٍ بَلاغِيَّةٍ وَخِطَابٍ إبدَاعِيّ، مَا أدَّى إلَى سُهُولَةِ قَبُولِهَا لَدَى المُتَلَقّينَ نَظَراً لِطَبيعَةِ الشّعرِ السَّلِسَةِ.

بِناءً عَلَى هَذَا، توزَّعَت مَادَّةُ البَحثِ عَلَى مِحوَرَينِ أسَاسِيَّين: (أوَّلاً: المَضَامِينُ الفِكريَّةُ وَتَوسِيعُ البُنيَةِ العَمِيقَةِ)، حَيثُ يُبحَثُ فِيهِ عَن تَأثِيرِ الفِكرِ الجَدِيدِ فِي إغنَاءِ الدَّلالَةِ الشّعرِيَّةِ الَّتِي كَانَت مَحصُورةً فِي مَوضُوعاتٍ تَخُصُّ حَياةَ الجَاهِلِيّينَ، لكِنَّها تَوسَّعت بِفَضلِ مَجِيء الإسلام وَفَتحِهِ آفَاقاً فِكرِيَّةً جَدِيدَةً و(ثانِياً: المَضَامِينُ الفِكرِيَّةُ وَتَطوِيرُ اللُّغَةِ الشّعرِيَّةِ)، وَفِي هَذَا المِحوَرِ يَنصَبُّ الحَدِيثُ عَلَى انعِكَاسِ البُنيَةِ العَمِيقَةِ وسِعَتِها عَلَى المُعجَمِ الشّعرِيّ وَرَصفِ الكَلِمَاتِ فِي مُتَوالِياتٍ لُغَويَّةٍ تُشَكّلُ الأُسلُوبَ الجَدِيدَ، وَيُلمَحُ إلَى تَقَانَةِ التَّناصّ التِي تُشَكّلُ مَلمَحاً أُسلُوبياً بَارِزاً فِي شِعرِ حَسَّان، وَفِي المِحوَرَينِ كِلَيهِمَا يُسلَّطُ الضَّوءُ عَلَى التَّأثِيرِ المُتبَادَلِ بَينَ المَضامِينِ الفِكريَّةِ الإسلامِيَّةِ وَالخِطَابِ الشّعرِيّ.

أوَّلاً: المَضَامِينُ الفِكرِيَّةُ وَتَوسِيعُ البُنيَةِ العَمِيقَةِ

تَكْمُنُ أَهَمّيَّةُ المَضَامِينِ الفِكْرِيَّةِ فِي تَمتِينِ القَاعِدَةِ الدَّلالِيَّةِ الَّتِي يَنْطَلِقُ مِنهَا الشَّاعِرُ فِي تَشكِيلِ خِطَابِهِ الشّعرِيّ، وَإمدَادِهَا بِمَوضُوعَاتٍ شِعرِيَّةٍ ذَاتِ

جَدَارَةٍ وَعُمْقٍ، وَتَصُبُّ هَذِهِ المَوضُوعاتُ مُبَاشَرةً فِي مَركَزِ تَولِيدِ الخطَابِ الشّعرِيّ، وَتُغنِي التَّجرِبَةَ الَّتِي تَسبِقُ وِلادَةَ القَصِيدَةِ دَائماً، وَتَعمَلُ عَلَى تَكثِيفِ الدَّلالَةِ لِتَخرُجَ إِلَى البُنيَةِ السَّطحِيَّةِ عَلَى شَكْلِ مُتَوالِياتٍ لُغَوِيَّةٍ مُعَبّرَةٍ عَنْ تِلْكَ الكَثَافَةِ بِأَقَلِّ التَّعَابِيرِ وَالجُمَلِ الشّعرِيَّةِ.

وَلا شَكَّ فِي أَنَّ هَذِهِ البُنيَةَ الدَّلالِيَّةَ هِيَ التِي تَرسُمُ المَلامِحَ الشَّكلِيَّةَ لِلخِطَابِ أَيّاً كَانَ نَوعُهُ، وَتُعِينُ مُنتِجَ الخِطَابِ عَلَى اختِيَارِ أَلفَاظِهِ وَتَعَابِيرِهِ فِي البُنيَةِ السَّطحِيَّةِ مِن مُعجَمِهِ اللُّغَوِيّ لِتَكُونَ أَكْثَرَ دِقَّةً وَتَعبِيراً عَلى المَعنَى، وَقَد يُضطَرُّ إِلَى أَلفَاظٍ وَمُصطَلَحَاتٍ جَدِيدَةٍ لِتُنَاسِبَ البُنيَةَ العَمِيقَةَ وَتَفِي بِالمَعنَى بِأَحسَنِ وَجهٍ، لأَنَّ المَضمُونَ يَأخُذُ شَكْلَ القَالَبِ، وَيَتَحدَّدُ بِحُدُودِهِ فِي وُضُوحِهِ وَجَودَتِهِ، أو غُمُوضِهِ وَرَدَاءَتِهِ[1].

وَهَذَا الكَلامُ يَكُونُ أَكْثَرَ دِقَّةً وَتَعقِيداً مَعَ الخِطَابِ الشّعرِيّ، لأَنَّهُ يَستَخدِمُ لُغَةً أَرْقَى مِنَ الخِطَابَاتِ الأُخرَى وَيَستَعمِلُهَا استِعمَالاً خَاصّاً، قَد يَبدُو الشَّاعِرُ أَنَّهُ يَستَخدِمُ الأَلفَاظَ وَالتَّرَاكِيبَ التِي يَستَخدِمُها الرَّجُلُ العَادِيّ، فَلُغَتُهُ فِي ظَاهِرِ الأَمرِ عَلَى نَفسِ النَّسَقِ الَّذِي يَصطَنِعُهُ إِنْسَانٌ عَادِيٌّ، لَكِنْ فِي الحَقِيقَةِ تَأخُذُ التَّرَاكِيبُ صُورَةً أو مَعنًى أَرْوَعَ وَأَنضَرَ، كَأَنَّ هُنَاكَ جُهداً شَخصِيّاً يَجعَلُ مَعنَى التَّركِيبِ فِي العِبَارَةِ الشّعرِيَّةِ يَختَلِفُ عَنْ مَعنَى التَّركِيبِ المُنَاظِرِ لَهُ فِي العِبَارَةِ غَيرِ الشّعرِيَّةِ[2]، وَهَذَا نَابِعٌ عَنْ عُمقِ البُنيَةِ الدَّلالِيَّةِ وَسِعَتِهَا، وَهُنَاكَ تَفَاوتٌ بَينَ الشُّعَرَاءِ فِي سِعَةِ هَذِهِ البُنيَةِ بِحَسَبِ المَضَامِينِ وَالمَعَانِي المُختَلِفَةِ التِي تَحتَوِيهَا، وَالعَنَاصِرِ التِي تَختَزِنُهَا بِمُرُورِ الزَّمَنِ.

---

١. ملكاوي، د.فتحي حسن، **البناء الفكري مفهومه ومستوياته وخرائطه**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هرندن، فيرجينيا، ط١، ١٤٣٦هـ- ٢٠١٥م، ص٢٠٤.

٢. ناصف، د. مصطفى، نظرية المعنى في النقد العربي، دار الأندلس، بيروت –لبنان، ط١، د.ت، ص١٢.

عَمَلِيَّةُ تَوسِيعِ البُنيَةِ العَمِيقَةِ عِنْدَ الشَّاعِرِ مُرتَبِطةٌ ارْتِبَاطاً وَثِيقاً بِالبِنَاءِ الفِكرِيّ لَهُ، لأنَّ هَذِهِ البُنيَةَ تُمَثّلُ القَاعِدَةَ الذّهنِيَّةَ لِلأفكَارِ وَالمَعَانِي وَالتَّجرِبَةِ وكُلّ مَا يَتَعلَّقُ بِإدرَاكِهِ لِلأشيَاءِ وَتَفكِيرِهِ فِي مَاهِيَّتِهَا، وَلا تَتَّسِعُ مَـرَّةً وَاحِدَةً عَلَى أكمَلِ وَجهٍ، بَلْ هِيَ فِي تَوَسُّعٍ مُستَمِرّ جَنباً إلى جَنبٍ مَعَ تَقَدُّمِ عَمَلِيَّةِ البِنَاءِ الفِكرِيّ لَدَى الشَّاعِرِ، كَمَا أنَّ الفِكرَ لا يَدخُلُ إلى الإنسَانِ جِسماً كَامِلاً، إنَّمَا يَبنِيهِ بِنَاءً لَبِنَةً بَعدَ أُخـرَى ويَجرِي هَذَا بِمَنهَجٍ[1]، يَجرِي التَّوَسُّعُ أيَضاً فِي البُنيَةِ الدَّلالِيَّةِ العَمِيقَةِ لَدَى الشَّاعِرِ خُطوَةً بَعدَ أُخرَى، كُلَّمَا تَطَوَّرَ بِنَاؤهُ الفِكرِيُّ مِنْ مُستَوى إلى آخَرَ وَتَرَقَّى تَوسَّعتِ البُنيَةُ العَمِيقَةُ، وَتثرَى بِالأفكَارِ وَالصُّوَرِ وَالمَعَانِي؛ مَا يَنْعكِسُ عَلَى لُغَتِهِ الشّعرِيَّةِ فِيمَا بَعدُ، وَيُؤثّرُ فِي تَعَابِيرِهِ وَنِتَاجِهِ الشّعرِيّ.

بِنَاءً عَلَى هَذَا، يُمكِنُنَا الحَدِيثُ عَن دَرَجَةِ الغِنَى وَالثَّرَاءِ وَمُسـتَوَى العُمْـقِ وَالتَّنَوُّعِ الفِكرِيّ فِي شِعرِ حَسَّانِ بنِ ثَابِتٍ بَعدَمَا أخَذَ الإسْلاَمَ دِيناً وَعَقِيدَةً وَمَنهَجاً فِي الحَيَاةِ، أي غَيَّرَ طَرِيقَةَ بِنَائِهِ الفِكرِيّ مِنَ الجَاهِلِيَّةِ إلى الإسلامِ، وَانْتَقَلَ إلـى حَالَةٍ جَدِيدَةٍ، فَصَارَ إنسَاناً جَدِيداً لأنَّ شَخصِيَّةَ الفَردِ تَتَشكَّلُ مِن بِنَائِـهِ الفِكـرِيّ وَبِنَائِهِ النَّفسِيّ، وَفِي الوَقتِ الذِي يَختَصُّ البِنَاءُ الفِكرِيُّ فيه بِالقَنَاعَـاتِ العَقلِيَّـةِ وَالمُعتَقَدَاتِ، فَإنَّ البِنَاءَ النَّفسِيَّ يَختَصُّ بِالجَانِـبِ الانفِعَـالِيّ وَالوِجـدَانِيّ مِـنَ الإنْسَانِ[2]، وكِلا الجَانِبَينِ يَشتَرِكَانِ بِفَعالِيَّةٍ كَبِيرَةٍ فِي إخرَاجِ التَّجرِبَةِ الشّعرِيَّةِ مِنْ صُورَتِهَا الذّهنِيَّةِ إلى الصُّورَةِ المَادّيَّةِ المُتَمَثّلَةِ فِي اللُّغَةِ، وَمِنْ أهَمّ سِمَاتِ اللُّغَـةِ الشّعرِيَّةِ أنَّهَا مَشحُونَةٌ بِالعَوَاطِفِ والانْفِعَالاتِ، وَهِيَ غَيرُ اللُّغَةِ التَّوَاصُلِيَّةِ العَادِيَّةِ

---

١. ملكاوي، د. فتحي حسن، مرجع سابق، ص٧٤-٧٥.

٢. السابق نفسه، ص٧٥.

الَّتِي تَعتَمِدُ عَلَى المَنطِقِ وَمَقَاييسِ العَقلِ، بَلْ إنَّهَا لُغَةٌ فَنّـيَّـــةٌ جَمَالِيَّــةٌ تَمُــرُّ صِيَاغَتُهَا عَبْرَ دَهَالِيزِ الخَيَالِ، وَمَعرُوفٌ أنَّ عَالَمَ الخَيَالِ خَــاصٌّ لَــهُ مَعَــاييرُهُ وَطَبِيعَتُهُ الَّتِي تَختَلِفُ عَن طَبِيعَةِ العَالَمِ الوَاقِعِيّ.

مِنْ هُنَا يُمكِنُنَا أنْ نُؤَشّرَ إلَى بَعضِ المَضَامِينِ الفِكرِيَّــةِ الَّتِــي دَخَلَــت إلَــى مَوضُوعَاتِ الشّعرِ عِنْدَ حَسَّانٍ بَعدَ إسلامِهِ، وَأغنَتِ التَّجرِبَةَ الشّعرِيَّةَ لَدَيهِ، وَوَسَّعَت مِنَ البُنيَةِ العَمِيقَةِ الَّتِي تُمَثّلُ القَاعِدَةَ الدَّلالِيَّةَ لإنتَاجِ خِطَابِهِ الشّعرِي، وَمِن أهَمّهَا:

١ ـ المَضَامِينُ المُتَعَلّقَةُ بِالجَانِبِ العَقِيدِيّ:

تَتَعَلَّقُ هَذِهِ المَضَامِينُ بِقَضِيَّةِ الإيمَانِ وَمَا يَتَعلَّقُ بِهِ وَبَرَاءَتِهِ مِــنَ الشّــركِ وَعِبَادَةِ الأصنَامِ، وَقَدْ فَتَحَ التَّحَوُّلُ العَقِيدِيُّ لَدَيهِ آفَاقاً وَاسِعَةً فِي الفِكــرِ الــدّينِيّ، حيثُ كَانَ مَحصُوراً عَلَى الخُرَافَةِ وَالشَّعوَذَةِ وَالسّحرِ وَمَا وَرِثَهُ مِنْ أجدَادِهِ مِــن العِبَادَةِ لِعَنَاصِرِ الطَّبِيعَةِ وَالأشيَاءِ الجَامِدَةِ، لَكِنْ بِفَضلِ تَصــدِيقِ نُبُــوَّةِ مُحَمَّــدٍ (ﷺ) وَالإيمَانِ بِوَحدَانِيَّةِ اللَّهِ وَصِدقِ الرّسَالَةِ السَّمَاوِيَّةِ ارْتَقَى عَقلُهُ، وَمَضَــى يَحتَكِمُ إليهِ فِي مَعرِفَةِ الذَّاتِ الإلهِيَّةِ وَإنشَاءِ الكَونِ وَتَدبِيرِ نِظَامِهِ، وَالتَّأمُّــلِ فِــي مَلَكُوتِ السَّمَاواتِ وَالأَرضِ وَإمعَانِ النَّظَرِ فِي صَانِعِ هَذَا الكَونِ وَالحَيَاةِ الَّــذِي سَوَّى كُلَّ شَيءٍ فِيهِ وَقَدَّرَهُ تَقدِيراً[1]، وَقَد انْعَكَسَت رَحَابَةُ هَذَا الجَانِبِ بِمَفَاهِيمِــهِ الجَدِيدَةِ وَمَوضُوعَاتِهِ الكَثِيرَةِ عَلَى تَوسِيعِ البُنيَةِ الدَّلالِيَّةِ لَدَى الشَّاعِرِ، فَصَارَ يُعَبّرُ عَنهَا فِي قَصَائِدِهِ، وَيَستَخدِمُ كُلَّ طَاقَاتِهِ الذّهنِيَّةِ فِي التَّــزوُّدِ بِجَمِيــعِ المَعَــارِفِ وَإدرَاكِ الحَقَائِقِ مِمَّا أثرَى المَعَانِيَ الشّعرِيَّةَ وَالدَّلالاتِ الكَثِيفَةَ فِي التَّعبِيرِ.

وَالأمثِلَةُ عَلَى هَذَا التَّوَسُّعِ كَثِيرَةٌ فِي شِعرِهِ، مَثَلاً قَولُهُ (مِنَ الطَّوِيلِ):

---

١. ضــيف، د. شــوقي (١٣ مــارس ٢٠٠٥)، **تــاريخ الأدب العــربي العصــر الإســلامي**، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٦٣م، ص١٥.

وَأَنتَ إِلهُ الخَلْـقِ رَبّـي وَخَـالِقِي بِـذَلِـكَ مَا عَـمَّـرْتُ فِي النَّاسِ أَشْهَدُ
تَعَالَيْتَ رَبَّ النَّاسِ عَنْ قَولِ مَنْ دَعَا سِوَاكَ إِلَهاً أَنْـتَ أَعْـلَى وَأَمْـجَدُ
لَكَ الخَلْقُ وَالنَّعْمَاءُ وَالأَمرُ كُـلُّـهُ فَـإِيَّاكَ نَسـتهدِي وَإِيَّاكَ نَـعْـبُـدُ[1]

فِي هذَهِ الأَبيَاتِ يَتَّضِحُ التَّحَوُّلُ الفِكْرِيُّ وَالعَقِيدِيُّ لِحَسَّانٍ مِنَ الجَاهِلِيَّةِ إِلـى الإِسلامِ، إِذْ خَرَجَ مِنَ النّطَاقِ الضَّيِّقِ لِعِبَادَةِ الأَصْنَامِ إِلَى عَالَمٍ أَوسَعَ وَمَعرِفَةِ الإِلَهِ الخَالِقِ لِلكَونِ وَالبَشَرِ وَالخَلْقِ جَمِيعاً، وَهَذَا التَّحَوُّلُ أَثَّرَ فِي تَطوِيرِ البِنَاءِ الفِكرِيّ لَدَيهِ، حَيثُ قَلَبَ مَوَازِينَ التَّفكِيرِ عِندَ حَسَّانٍ، فَكَانَ فِي الجَاهِلِيَّةِ رَهِـينَ عِبَـادَةِ الطَّبِيعَةِ بِسَبَبِ عَدَمِ إِدْرَاكِهِ عَلاقَةَ الإِنْسَانِ بِهَا، وَعَدَمِ مَعرِفَتِهِ بِأَنَّ خَالِقَ الكَـونِ سَخَّرَ كُلَّ مَا فِيهِ لِلإِنْسَانِ وَهُوَ أَكرَمُ خَلْقِ اللَّهِ، لَكِنْ بِفَضْلِ هَذَا التَّحَوُّلِ فِي عَقِيدَتِهِ أَدْرَكَ أَنَّـهُ كَانَ مُخطِئاً فِي إِيمَانِهِ، وَأَنَّ اللَّهَ يَتَعَالَى عَمَّنْ سِوَاهُ وَلا يَحتَاجُ إِلـى شَرِيكٍ، فَلَهُ الخَلْقُ وَالأَمرُ كُلُّهُ، فَهُوَ يَستَحِقُّ أَنْ يُطلَبَ مِنْهُ الهُدَى وَأَنْ يُعبَدَ.

هَذَا الإِيمَانُ فَتَحَ عَلَيهِ أَبوَاباً أُخرَى لِيُرَاجِعَ مَفَاهِيمَهُ وَبِنَاءَهُ الفِكرِيَّ بِرُمَّتِهِ، فَكَثُرَ الحَدِيثُ عَلَى أَثَرِ ذَلِكَ فِي شِعرِهِ عَن مَفَاهِيمَ مِثْلِ الحَقّ وَالضَّلالِ وَالخَيْـرِ وَالشَّرّ وَالسَّعَادَةِ وَالبَعثِ وَالحَلالِ وَالحَرَامِ، مَثَلاً قَولُهُ لِـ(أُبَيّ بنِ خَلَفٍ الجُمَحِيّ) الَّذِي أَنكَرَ البَعثَ أَمَامَ الرَّسُولِ (ﷺ)، وَجَاءَ بِعَظمٍ رَمِيمٍ بَالٍ إِلَيْهِ قَائِلاً: أَتَزعُمُ أَنَّ رَبَّكَ يُحيِي المَوتَى؟! (مِنَ الوَافِرِ):

لَـقَـدْ وَرِثَ الضَّـلالَةَ عَنْ أَبِيـهِ أُبَـيٌّ يَـومَ فَـارَقَـهُ الرَّسُـولُ
أَجِئتَ مُحَمَّـداً عَظْـماً رَمِيـمـاً لِتُكْـذِبَـهُ وَأَنْـتَ بِـهِ جَهُـولُ
وَقَـدْ نَالَـتْ بَنُـو النَّجَّـارِ مِـنكُمْ أُمَيَّـةَ إِذْ يُغَـوّثُ يَـا عَقِيـلُ[2]

---

١. الأنصاري، حسان بن ثابت (٥٤هـ)، **ديوان حسان بن ثابت**، شرح: د.يوسف عيد، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م، ص٨٣.

٢. الأنصاري، ديوان حسان بن ثابت، مصدر سابق، ص٣٢٢.

وَيَقُولُ أيضاً (مِنَ الطَّوِيلِ):

تَرَحَّــلَ عَنْ قَومٍ فَضــلتْ عُقُولُهُـــم وَحَلَّ عَلَى قَومٍ بِنُـــــورٍ مُجَـــــدَّدِ
هَدَاهُـــمْ بِهِ بَعْــدَ الضَّلالَةِ رَبُّهُـــمْ وَأَرشَــدَهُمْ مَنْ يَتْبَــعِ الحَــقَّ يَرشَــدِ
لَقَــدْ نَزَلَــتْ مِنْهُ عَلى أهــلِ يَثــرِبَ رِكابُ هُــدى حَلَّتْ عَلَــيهِمْ بِأَسْــعُدِ[1]

تُبَيّنُ هَذِهِ الأَبيَاتُ كَيفَ تَغيَّرَت نَظرَتُهُ إلى الحَقّ وَالضَّلالِ وَالرُّشدِ وَالحَقّ، فَيَربِطُ رُشْدَ الإنسَانِ واكْتِمَال عَقلِهِ بِاتّبَاعِ الحَقّ، وَالحَقُّ لاَ يُعرَفُ وَلا يُدرَكُ مِن دُونِ تَفكِيرٍ سَلِيمٍ مَصدَرُهُ عَقْلٌ سَلِيمٌ.

وَقَادَهُ إيمَانُهُ بِاللَّهِ وَتَصدِيقُهُ الرَّسُولَ (ﷺ) إلى تَصْدِيقِ مَا وَرَدَ فِي القُرآنِ الكَرِيمِ مِنْ أخبَارِ الأُمَمِ الغَابِرَةِ وَالأَنبيَاءِ المُرسَلِينَ إلَيهِم، وَقَدْ وَسَّعَتِ القِصَــصُ الوَارِدَةُ فِي القُرآنِ البُنيَةَ الدَّلاليَّةَ لَدَى حَسَّانٍ، وَزَوَّدَتــهُ بِالمَعَــانِي وَالــدَّلالاتِ وَالمَوضُوعَاتِ الشّعرِيَّةِ، وانْعكَسَتْ هَذِهِ الحَالَةُ إيجَاباً عَلَــى شِــعرِهِ وَصَــارَت مَضَامِينَ شِعرِيَّةً نَاتِجَةً عَنِ التَّحوُّلِ الفِكرِيّ لَدَيهِ، وَمِنهَا قَولُهُ (مِنَ الطَّوِيلِ):

شَــهِدْتُ بِــــإِذْنِ اللَّــهِ أنَّ مُحَمَّــداً رَسُولُ الَّذِي فَوقَ السَّمَاوَاتِ مِن عَــــلُ
وَأَنَّ أَبَــا يَحْيَى وَيَحْيَى كَلَيهِــمَــــا لَهُ عَــمَلٌ فِي دِيــــنــهِ مُــتَــقَــبَّــلُ
وَأَنَّ الَّتِي بِالجِزْعِ مِنْ بَطْــنِ نَخلَــةٍ وَمَنْ دَانَــهَا فِــلٌّ مِنَ الخَيْرِ مَعــــــزِلُ
وَأَنَّ الَّذِي عَادَى اليَهُودَ ابَــنُ مَــرِيَمِ رَسُولٌ أَتَى مِنْ عِندِ ذِي العَرشِ مُرسَلُ[2]

---

١. الأنصاري، ديوان حسان بن ثابت، مصدر سابق ، ص٩١.

٢. الأنصاري، حسان بن ثابت (٥٤هـ)، **شرح الديوان**، تحقيق: عبدالله سنده، دار المعرفة، بيروت، ط١، ٢٠٠٦، ص٢٠١.

يَدُلُّ مَا وَرَدَ فِي هَذِهِ الأبيَاتِ عَلى إيمَانِ حَسَّانٍ بالأنْبيَاءِ وَالمُرسَلِينَ الـــذين وَرَدَ ذِكرُهُم فِي القُرآنِ، وَرُوِيَتْ قِصَصُهُم بِالتَّفصِيلِ وَبِطَرائِقَ غَيرِ مَعهُودَةٍ عِندَ العَرَبِ وَالأُمَمِ ذَواتِ الرَّسائِلِ السَّماوِيَّةِ، وَبِمَا أنَّ القُرآنَ صَارَ مَصـــدَراً رَئِيســاً لِبِنَائِهِ الفِكرِيّ، فَقَدْ أخَذَ هَذِهِ القِصَصَ وَوَسَّعَ بِهَا قَاعِدَةَ البُنيَةِ الدَّلالِيَّةِ لَدَيهِ وَأدخَلَ مَضَامِينَ جَدِيدَة إلَيهَا.

٢ ـ المَضَامِينُ المُتَعَلّقَةُ بِالفِكرِ الاجْتِماعِي:

تَتَجَسَّدُ هَذِهِ المَضَامِينُ فِي طَرِيقَةِ تَعَامُلِ حَسَّانٍ مَعَ القِيَمِ الاجتِمَاعِيَّةِ الّتِي جَاء بِهَا الإسلامُ لِلبَشَرِيَّةِ لِيُكَوّنَ بِهَا مُجتَمَعَاتٍ أكثَرَ تَمَاسُكاً وَانسِجَاماً، تَتَمَتَّعُ بِالتَّسَامُحِ وَالعَيْشِ المُشتَرَكِ وَالتَّحَلّي بِالفَضَائِلِ وَالأخلاقِ الكَرِيمَةِ، وَالقِيَمُ مَجمُوعَةٌ مِنَ المَبَادِئ وَالأُسُسِ الّتِي يَعتَنِقُهَا الإنسَانُ وَتُوَجّهُ سُلُوكَهُ، وَتَكُونُ تِلْكَ القِيَمُ مَنظُومَةً مُتَكَامِلَةً لِضَبطِ السُّلُوكِ الإنسَانِيّ فِي كَافَّةِ مَجَالاتِ الحَيَاةِ[١].

وَلا شَكَّ فِي أنَّ القِيَمَ الإسلامِيَّةَ الَّتِي دَخَلَتْ حَيَاةَ حَسَّانٍ، وَحَلَّت مَحَلَّ القِيَمِ الجَاهِلِيَّةِ، أحدَثَت ثَورَةً كَبِيرَةً فِي شَخصِيَّتِهِ عَلَى الصَّعِيدَينِ الفِكرِيّ وَالعمَلِيّ، فَصَارَ التَّعبِيرُ الشّعرِيُّ لَدَيهِ جُزءاً مِنْ سُلُوكِهِ، وانْعَكَستِ الرُّؤيَةُ الإسلامِيَّةُ فِي مُجمَلِ حَيَاتِهِ وَهيَ رُؤيَةٌ مَنظُومِيَّةٌ تَنظُرُ إلى كلّ شَيءٍ بِاعتِبَارِهِ مَنظُومَةً كُلّيَّةً لَهَا جُملَةٌ مِنَ المَنظُومَاتِ الكُلّيَّةِ التَّأسِيسِيَّةِ يُسَانِدُ بَعضُهَا بَعضاً[٢]، وقَد تَعَامَلَ حَسَّانُ مُعَامَلَةَ المُفَكّرِ مَعَ تِلْكَ القِيَمِ وَحَاوَلَ تَرْسِيخَهَا فِي المُجتَمَعِ عَبْرَ شِعرِهِ، لِمَا لِلشّعرِ مِن أهَمّيَّةٍ فِي نُفُوسِ النَّاسِ، وَأهَمُّ هَذِهِ القِيَمِ الصّدْقُ، وَهُوَ أسَاسٌ لِمَجمُوعةٍ مِنَ المَفَاهِيمِ الأُخرَى وَالقِيَمِ الأخلاقِيَّةِ فِي المُجتَمَعِ، وَقَد صَارَ مَوضُوعاً شِعرِياً عِندَ حَسَّانٍ مُتَنَاوَلاً بطُرقٍ عَدِيدَةٍ، فَهوَ يَقُولُ (مِنَ البَسيطِ):

يَـأيُّها النَّاسُ أَبْـدُوا ذَاتَ أَنْـفُسِكُـم لا يَستَوِي الصّدْقُ عِندَ اللَّهِ والكَذِبُ[٣]

وَمَضَى يَربِطُ الصّدْقَ بِتَصدِيقِ مَا أتَى بِهِ الرَّسُولُ (ﷺ)، لأنَّ تَصدِيقَ تِلكَ المَنظُومَةِ مِنَ القِيَمِ وَالمَفَاهِيمِ الغَيبِيَّةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا الرَّسُولُ (ﷺ) يَكُونُ أسَاساً

---

١. مجموعة مؤلفين، القيم في الظاهرة الاجتماعية، تحرير: أ.د. نادية محمود مصطفى وآخرون، دار البشير، القاهرة، ط١، ٢٠١١، ص٤٥.

٢. المرجع نفسه والصفحة نفسها.

٣. الأنصاري، ديوان حسان بن ثابت، مصدر سابق، ص٣٠.

لِلتَّحَلّي بِالصّدق كَقِيمَةٍ اجْتِمَاعيَّةٍ، والكُفرَ بِهَا ارتِيابٌ وَشَكٌّ يُرَاوِدُهُمَا الكَذِبُ، مِن ذَلِكَ قَولُهُ (مِنَ الكَامِلِ):

وَأَقَــرَّ عَيْنَ مُحَمَّــــدٍ وَصَــحَــــابِهِ وَأَذَلَّ كُــلَّ مُكَــذِّبٍ مُــــرتَــــابِ
مُسْتَشــعِــــرٍ لِلكُفْــــرِ دُونَ ثِيَابِــهِ وَالكُــفْــــرُ لَيسَ بِظَــاهِرِ الأَثوَابِ
عَلِقَ الشَّقَــــاءُ بِقَلْــبِهِ فَــأَرَانَــــــهُ فِــي الكُفْــرِ آخِــرَ هَذِهِ الأَحقَابِ[1]

يَربِطُ هُنَا بَيْنَ الصّدق والإيمَانِ وبينَ الكُفرِ والكَذِبِ، كَأَنَّهُ أَرَادَ أن يَقُولَ إنَّ النُّفُوسَ الزَّكِيَّةَ الطَّاهِرَةَ تُصَدّقُ نُبُــوَّةَ مُحَمَّدٍ لأنَّ الصّدْقَ رَاسِخٌ فِيهَا، أمَّا النُّفُوسُ المُرتَابَةُ المَرِيضَةُ فَتَبقَى عَلَى الكُفْرِ وَالشَّكّ وَتَمِيلُ إلَيهِمَا، وَلا سَبِيلَ لِلصّدق إلَيهَا مَا دامَتْ بَاقِيَةً عَلَى حَالِهَا طيلة الدَّهرِ.

وَيَبدُو حَسَّان أحيَاناً كَمُصلِحٍ اجتِمَاعِيّ يُركّزُ عَلَى أمرَاضِ المُجتَمَعِ وَيُحَدّدُهَا، ثُمَّ يَدعُو إلَى تَركِهَا وَالتَّحَلّي بِالفَضَائِلِ بَدَلاً مِنهَا، مِن ذَلِكَ قَولُهُ (مِنَ الكَامِلِ):

إنَّ الخِيَــانَةَ وَالمَغَــــالَةَ وَالخَنَــــــا وَالــلُّؤمَ أصبَــحَ ثَاويــاً بِــالأبْطَحِ
قَــــوْمٌ إذَا نـــــطَقَ الخَنَــا نَادِيهِــــمُ تُبِــعَ الخَنَا وأُضِيعَ أمْــرُ المُصــلِحِ
وَاشْــتَقَّ عِنــدَ الحِجْــرِ كُــلَّ مُــزَلَّجٍ إلا يَصِــحْ عِندَ المَقَالَــةِ يَنْبَــــحِ[2]

يَتَنَاوَلُ فِي هَذِهِ الأبيَاتِ صِفَاتٍ أخلاقِيَّةً رَذِيلَةً مِثْلَ الخِيَانَةِ وَالوشَايَةِ وَالفحْشِ مِنَ القَولِ وَفُقدَانِ القَصْدِ، وَهيَ صِفاتٌ كَانَتْ سَائِدَةً فِي المُجتَمَعِ الجَاهِلِيّ، وكَانَ بَعضُهَا مَحَلَّ فَخْرٍ عِندَ الشُّعرَاءِ وَهِيَ نَابِعَةٌ مِنَ العَادَاتِ وَالتَّقَالِيدِ وَلَم يُعَارِضْــهَا

---

١. الأنصاري، ديوان حسان بن ثابت، مصدر سابق، ص٢٢-٢٣.

٢. المصدر نفسه، ص٧٨.

الشّعرُ، بَل عَمِلَ عَلَى تَكرِيسِهَا خُصُوصاً إذَا كَانَت بِحَقّ الخُصُومِ، وَهَذَا مَا أفسَدَ وِئَامَ المُجتَمَعِ وَالتَّضَامُنَ بَينَ أبنَائِهِ، لَكِنْ بِفَضلِ الإسلامِ تَغَيَّرَت هَـذِهِ الأُمُـورُ، وَنَرَى حَسَّاناً كَيفَ يُركّزُ عَلَى نَبذِ تِلكَ المَفَاهِيمِ الخَاطِئَةِ لِتَحقِيقِ قِيمَةِ التَّضَـامُنِ الاجتِمَاعِيّ والاحتِرَامِ المُتَبَادَلِ بَيْنَ المُكَوّنَـاتِ المُختَلِفَـةِ، وَلا شَـكَّ أنَّ هَـذِهِ المَضَامِينَ دَخَلَت شِعْرَ حَسَّانٍ بِفَضلِ الإسلامِ.

وَمِنَ القِيَمِ الاجْتِمَاعِيَّةِ النَّبِيلَةِ تَحقِيقُ الانْسِجَامِ وَالوَحدَةِ بَيْنَ أبنَاءِ المُجتَمَـعِ الوَاحِدِ وَإنِ انتَسَبُوا إلَى شَرَائِحَ مُتَعدّدَةٍ وَأجنَاسٍ مُختَلِفَةٍ، لأنَّ السَّـلامَ وَالوِئَـامَ الاجتِمَاعِيَّينِ مَصدَرَا الحَيَاةِ الكَرِيمَةِ، وَهَذَا مَا دَعَا إلَيهِ حَسَّان فِي شِعرِهِ فِي قَولِهِ (مِنَ البَسِيطِ):

وَقَدْ زَعَمْتُـمْ بِأنْ تَحْـمُـوا ذِمَارَكُـم وَمَـاءُ بَـدرٍ زَعَمْتُـم غَيْرُ مَورُودِ
وَقَـد وَرَدنَـا وَلَـم نَسـمَعْ لِقَـولِكُم حَتَّى شَرِبْـنَا رَوَاءً غَيرَ تَصـرِيدِ
مُستَعصِمِينَ بِحَبْـلٍ غَيـرِ مُنجَـذِمٍ مُستَحكِمٍ مِنْ حِبَـالِ اللَّـهِ مَمـدُودِ

يَجِدُ حَسَّانُ فِي هَذِهِ الأَبيَاتِ الإسلامَ الرَّابِطَ الأَقوَى وَالأهَمَّ لِبَقَـاءِ المُجتَمَـعِ مُتمَاسِكاً وَمُنسَجِماً، لأنَّ حَبلَ اللَّهِ غَيرُ مَقطُوعٍ بَل صِـلَةٌ وَثِيقَـةٌ يَجمَـعُ كُـلَّ الاختِلافاتِ، وَيَنبُذُ التَّفرِقَةَ وَالزَّعَامَاتِ الفَارِغَةَ.

٣ ــ المَضَامِينُ المُتَعلّقَةُ بِالفِكرِ السّيَاسِيّ

تَأتِي هَذِهِ المَضَامِينُ انْعِكَاساً لِلمَفَاهِيمِ الَّتِي جَاءَ بِهَا الإسلامُ فِي مَجَالِ الفِكرِ السّيَاسِيّ لِلبَشَرِ عُمُوماً وَلِلعَرَبِ عَلَى وَجهِ الخُصُوصِ، لتَوسِيعِ آفَاقِهِمُ الفِكرِيَّـةِ بِخُصُوصِ التَّوَجُّهِ نَحوَ الوَحدَةِ وَنَبذِ التَّفرِقَةِ، وَتَأسِيسِ الدَّولَةِ بِحُدُودٍ أوسَعَ مِـنَ القَبِيلَةِ، واتّخَاذِ الأُمَّـةِ قَاعِدَةً لِبِنَاءِ تِلكَ الدَّولَةِ وَتَحدِيدِ الحُقُوقِ وَالوَاجِبَاتِ وَحُقُوقِ الأقَلّيَاتِ، وَقَد تَجَسَّدَ كُلُّ هَذَا فِي مِيثَاقِ المَدِينَةِ.

وَقَد تَنَاوَلَ حَسَّان مَوضُوعَاتٍ سِيَاسِيَّةً تُشيرُ إِلَى تَغييرٍ فِي الفِكرِ السّيَاسِيّ عِندَهُ، وَقد أسهمَت فِي بِنَائِهِ الفِكرِيّ وَتَوسِيعِ البُنيَةِ العَمِيقَةِ فِي تَجرِبَتِهِ الشّعرِيَّة؛ ومِنْ هَذهِ المَوضُوعَاتِ مَسأَلَةُ الانتِمَاءِ، وَهيَ ظَاهِرَةٌ إنسَانِيَّةٌ قَدِيمَةٌ تُحَدّدُ نَوعاً مِنَ الهُوِيَّةِ لِلفَردِ تُمَيّزُهُ مِن غَيرِهِ فِي جَمَاعَاتٍ مُختَلِفَةٍ[1]، فَقَد كَانَت فِي الجَاهِلِيَّةِ لِلقَبِيلَةِ أو الجَدِّ الأعلَى، لأنَّ رَوابِطَ القَرَابَةِ الدَّمَوِيَّةِ هِيَ عِمَادُ الأنسَاب، وَهِيَ أنسَابٌ تَبلُغُ عِندَهُم دَرَجَةَ الحَقَائِقِ الثَّابِتَةِ الَّتِي يُقِرُّهَا المُجتَمَعُ، وَيُقِيمُ عَلاقَاتِهِ الإنسَانِيَّةَ عَلَى أسَاسِهَا، فَهوَ مُجتَمَعُ قَبَائِلَ أبَوِيَّةٍ لا يَتأتَّى وُجُودُهَا إلَّا بِوُجُودِ النَّسَبِ الَّذِي تَقُومُ عَلَى أسَاسِهِ الرَّوَابِطُ بَينَ تِلكَ القَبَائِل[2]، لَكِنَّ الانتِمَاءَ بَعدَ إسلامِ حَسَّانٍ صَارَ لِلأُمَّةِ الإسلامِيَّةِ وَلِلدّينِ الإسلامِيّ الَّذِي يَجمَعُ الأُمَّةَ عَلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، وَإنْ بَقِيَ لِلقَبِيلَةِ شَأنٌ فَهوَ بِفَضلِ مَكَانَةِ الرَّسُولِ (ﷺ) فِيهَا، أو تَمَسُّكِ أبْنَائِهَا بِالإسلامِ، مِن ذَلِكَ يَقُول: (مِنَ الطَّوِيلِ)

فَمَا زَالَ فِي الإسْلامِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ دَعَائِمُ عِزّ لا تُرَامُ وَمَفْخَرُ
هُمُ جَبَلُ الإسْلامِ وَالنَّاسُ حَولَهُ رِضَامٌ إلى طَودٍ يَرُوقُ وَيَقهَرُ
بِهِم تُكْشَفُ اللأوَاءُ فِي كُلّ مَأزَقٍ عَمَاسٍ إذَا مَا ضَاقَ بِالقَومِ مَصدَرُ
هُمُ أولِيَاءُ اللّهِ أنْزَلَ حُكْمَهُ عَلَيهِمْ وَفِيهِم ذَا الكِتَابُ المُطَهَّرُ[3]

اَضِحٌ أنَّ شَأنَ بَنِي هَاشِمٍ بَينَ القَبَائِلِ الأُخرَى مَا هُوَ إلَّا لكَون الرَّسُولِ (ﷺ) مِنهُم، لَكِنَّ الانتِمَاءَ الأَوسَعَ وَالأوثَقَ هُوَ لِلأُمَّةِ الإسلامِيَّةِ، فَهوَ يَقُولُ: (مِنَ الكَامِلِ).

---

١. اسليم، د. فاروق أحمد، **الانتماء في الشعر الجاهلي**، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط١، ١٩٩٨م، ص٩.
٢. السابق نفسه، ص٢٩-٣٠.
٣. الأنصاري، ديوان حسان بن ثابت، مصدر سابق، ص١٦٦.

اللَّـــهُ أكْرَمَـــنَا بِنَـــصرِ نَـــبِـــيِّـــهِ وَبِـــنَا أقَـــامَ دَعَـــائِـــمَ الإسْـــلامِ
وَبِـــنَـــا أَعَـــزَّ نَبِـــيَّـــهُ وكِـــتَـــابَـــهُ وَأَعَـــزَّنَـــا بِـــالضَّرْبِ وَالإقْـــدَامِ[1]

وَهَذَا تَجسِيدٌ لِمَا وَرَدَ فِي القُرآنِ الكَرِيمِ وَالسُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ الشَّرِيفَةِ مِـــن تَأكِيـــدٍ عَلَى عَدَمِ تَفضِيلِ أحَدٍ عَلَى أحَدٍ بِنَاءً عَلَى نَسَبِهِ أو شَرَفِ قَبِيلَتِهِ، إنَّمَا الأكرَمُ هُوَ الأتقَى وَالأكثَرُ تَمَسُّكاً بِالدّينِ، وبِذَلِكَ نَبَذَ الإسلامُ التَّفكِيرَ القَبَلِيَّ الضَّيِّقَ فِي ذِهنِ حَسَّانٍ وَأحلَّ مَحَلَّهُ الفِكْرَ الأَوسَعَ المُتَمَثِّلَ فِي الأُمَّةِ الإسلامِيَّةِ.

ثَانِيـــاً: المَضَامِينُ الفِكرِيَّةُ وَتَطوِيرُ اللُّغَةِ الشّعرِيَّةِ

اللُّغَةُ الشّعرِيَّةُ شَكلٌ مِن الأشكَالِ المُتَعدِّدَةِ لِلُّغَةِ وَاسْتِعمَالٌ خَاصٌّ لَهَا، كَونَهَـــا تَخرِقُ القَواعِدَ السَّائِدَةَ لَهَا وَتَنحَرِفُ عَنِ اللُّغَةِ العَادِيَّةِ بِغَرَضِ الإثَارَةِ وَالإحسَاسِ بِالجَمَالِ، وَاللُّغَةُ الشّعرِيَّةُ شَأنُهَا شَأنُ الأشكَالِ الأُخرَى لِلُّغَةِ، فَهِيَ تُحِيلُهَـــا عَلَـــى الأشْيَاءِ وَلا تَملِكُ خَارِجَ مُوسِيقِيَّتِهَا الخَاصَّةِ إلَّا مَا تُعِيرُهَا هَذِهِ الأَشيَاء، وَالأشيَاءُ لَيسَتْ شِعرِيَّةً إلَّا بِالقُوَّةِ، وَلا تُصبِحُ شِعرِيَّةً بِالفِعلِ إلَّا بِفَضلِ اللُّغَةِ، فَبِمُجَرَّدِ مَـــا يَتَحوَّلُ الوَاقِعُ إلَى الكَلامِ يَضَعُ مَصِيرَهُ الجَمَالِيَّ بَينَ يَدَي اللُّغَةِ، فَالكَلِمَاتُ لَيسَت إلَّا بَدَائِلَ لِلأشيَاءِ، إنَّهَا مَرصُودَةٌ لِتَنقُلَ إلَينَا خَبَراً عَنِ الأشيَاءِ، فَمَا دَامَتِ القَصِيدَةُ لُغَةً وَكَلِمَاتٍ فَهِيَ تُحِيلُ عَلَى المُحتَوَى وَالمَضمُونِ الَّذِي يُعتَبَرُ مَادَّةً؛ أي شَـــيءٌ مَوجُودٌ فِي ذَاتِهِ مُستَقِلٌّ عَنِ اللُّغَةِ[2]، وكَنَتِيجَةٍ مَنطِقِيَّةٍ تَكُونُ اللُّغَةُ الشّعرِيَّةُ انْعِكَاساً

---

١. الأنصاري، ديوان حسان بن ثابت، مصدر سابق، ص٣٧٧-٣٧٨.

٢.كوهن، جان (١٩٩٤م)، **بنية اللغة الشعرية**، ترجمة محمد الـــولي ومحمـــد العمـــري، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ١٩٨٦، ص٣٦، ٣٢.

انْعِكَاساً مَادّيــاً فِي البُنيَةِ السَّطحِيَّةِ لِلمَعَانِي وَالمَضَامِينِ الَّتِي تَتَبلوَرُ فِــي ذِهــنِ الشَّاعِرِ، وَتُوجَدُ بِالقُوَّةِ فِي البُنيَةِ الدَّلالِيَّةِ العَمِيقَةِ.

ويَجبُ أن نُمَيِّزَ بَينَ مُستَوَيَينِ لِلمَضَامِينِ الشِّعرِيَّةِ؛ همَــا: شَــكْلُ المَعنَــى ومَادَّتُهُ، فَالشَّكْلُ هُو العَلاقَةُ الَّتِي تَجمَعُ الكَلِمَاتِ فِي العِبَارَاتِ وَالنُّصُوص، وَالمَادَّةُ هِيَ الكَلِمَاتُ نَفسُهَا[1]، وَالمُستَوَيَانِ كِلاهُمَا يُعَــدَّانِ مِنَ البُنيَــةِ الفَوقِيَّــةِ لِلُّغَــةِ، مُتَأَثِّرانِ بِمَا تَفرِضُ عَلَيهِمَا الدَّلالَةُ الشِّعرِيَّةُ، لأنَّ طَرِيقَةَ تَــأليفِ الكَلِمَاتِ وَرَبطِهَا وَتَنظِيمِهَا تُغيِّرُ المَعنَى[2]، لِذَلِكَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الشَّاعِرُ دَقِيقاً فِي اختِيَارِهِ لِلأَلفَاظِ وَطَرِيقَةِ رَصفِهَا فِي العِبَاراتِ وَالنُّصُوص.

مِنْ هَذَا لا يُمكِنُ لِشَاعِرٍ أَنْ يُعَبِّرَ عَنِ المَضَامِينِ الفِكرِيَّةِ إلَّا بِأَلفَاظٍ تُنَاسِــبُهَا وَتَدُلُّ عَلَيهَا دَلالَةً دَقِيقَةً، وَبِأُسلُوبٍ مُنَاسِبٍ لَهَا فِي تَنظِيمِ تِلكَ الأَلفَاظِ، لأنَّ تَرتِيبَ الأَلفَاظِ فِي النّطقِ وَالكِتَابَةِ يَكُونُ عَلَى حَسَبِ تَرتِيبِ المَعَانِي فِي النَّفسِ[3].

فَإِذَا كَانَتِ المَعَانِي فِي نَفسِ حَسَّانَ مَحصُورَةً فِي الجَاهِلِيَّةِ عَلَــى مَضَــامِينَ مُعيَّنَةٍ نَابِعَةٍ مِنَ الحَيَاةِ الجَاهِلِيَّةِ وَثَقَافَتِهَا، فَإِنَّهَا فِي الإِسلامِ تَوَسَّعَت آفَاقُهَا وَتَنَوَّعَت مُدرَكَاتُهَا -كَمَا رَأَينَا-، وَدَخَلَت مَضَامِينُ جَدِيدَةٌ فِي ذِهنِهِ تَطَلَّبَت مِنهُ لُغَةً شِعرِيَّةً تُنَاسِبُهَا وَأُسلُوبــاً فِي التَّعبِيرِ أَكثَرَ دِقَّةً، وَيُمكِنُ رَصْــدُ انعِكَاسَــاتِ المَضَــامِينِ الفِكرِيَّةِ الآنِفَةِ الذِّكرِ عَلَى اللُّغَةِ الشِّعرِيَّةِ عِندَهُ فِي المَظَاهِرِ الآتِيَةِ:

١ ـ المُعْجَمُ الشِّعرِيُّ:

يُنظَرُ إِلَى المُعجَمِ الشِّعرِيِّ عَادَةً مِنْ زَاوِيَتَينِ؛ هُمَــا: الزَّاوِيَــةُ التَّركِيبِيَّــةُ وَالزَّاوِيَةُ الدَّلالِيَّةُ، فَالتَّركِيبِيَّةُ تَرَى فِي المُعجَمِ مُكَوِّناً أَسَاسِياً لِتَأسِيسِ بُنيَةِ الجُمْلَةِ

---

١. كوهن، جان (١٩٩٤م)، **بنية اللغة الشعرية**، ترجمة محمد الــولي ومحمــد العمــري، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ١٩٨٦، ص٤٣.

٢. ناصف، د.مصطفى، **نظرية المعنى في النقد العربي**، مرجع سابق، ص١٤.

٣. السابق نفسه، ص٤١.

نَحوياً، أمَّا الدَّلاليَّةُ فَتَرَى كَلِمَاتٍ تَتَرَدَّدُ بِنِسَبٍ مُختَلِفَةٍ بِنَفسِهَا أو بِمُرَادِفِهَا أو بِتَركِيبٍ يُؤَدّي مَعنَاهَا وَتُكَوِّنُ حُقُولاً دَلالِيَّةً، وَقَد يَكُونُ المُعجَمُ وَسِيلَةً لِلتَّمييزِ بَينَ أَنوَاعِ الخِطَابِ أو أَسَالِيبِ الشُّعرَاءِ أو العُصُورِ الأَدَبِيَّةِ[1]، وَلَيسَ ((هُنَاكَ مُعجَمٌ شِعرِيٌّ وَحِيدٌ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ ضِمنَ لُغَةٍ مَا، وَإِنَّمَا هُنَاكَ مُعجَمٌ شِعرِيٌّ مُتَطَوِّرٌ مَحكُومٌ بِشُرُوطٍ ذَاتِيَّةٍ وَمَوضُوعِيَّةٍ... فَالشَّاعِرُ الوَاحِدُ نَفسُهُ يَكُونُ لَهُ مَعَاجِمُ بِحَسَبِ المَقَالِ وَالمَقَامِ))[2].

وَمِنْ بَينِ الشُّرُوطِ المَوضُوعِيَّةِ المُتَحَكِّمَةِ بِتَطوِيرِ المُعجَمِ الشِّعرِيِّ عِندَ حَسَّانٍ دُخُولُهُ فِي الإِسلامِ وَتَركُهُ الجَاهِلِيَّةَ، بِذَلِكَ اكتَسَبَ مُعجَماً ضَمَّ كَمّاً هَائِلاً مِنَ الأَلفَاظِ الجَدِيدَةِ بِبُنَاهَا وَدَلالاتِهَا، فَقَد أَشَارَ البَاحِثُونَ كَثِيراً إِلَى مَوضُوعِ الأَلفَاظِ الجَدِيدَةِ وَتَغيُّرِ صُوَرِ التَّعبِيرِ لِتُنَاسِبَ العَصرَ وَالبِيئَةَ، وَضَرَبُوا أَمثِلَةً عَلَى هَذَا التَّطَوُّرِ وَمَظَاهِرِهِ، مِثلَ دُخُولِ المُصطَلَحَاتِ العَقِيدِيَّةِ وَالفِقهِيَّةِ وَالشَّرعِيَّةِ إِلَى الشِّعرِ وَتَغيِيرِ دَلالاتِ بَعضِ الأَلفَاظِ وَاستِحدَاثِ أُخرَى[3]، وَلا شَكَّ أَنَّ اسْتِجَابَةَ حَسَّانٍ لِلمَضَامِينِ الجَدِيدَةِ بِتَوسِيعِ آفَاقِ مُعجَمِهِ الشِّعرِيِّ كَانَتَ حَذَاقَةً مِنهُ، وَالأَمثِلَةُ كَثِيرَةٌ فِي شِعرِهِ عَلَى استِعمَالِ تِلكَ الأَلفَاظِ الإِسلامِيَّةِ الجَدِيدَةِ، نَكتَفِي بِقَولِهِ: (مِنَ الكَامِلِ):

يَا وَيْحَ أَنصَارَ النَّبِيِّ وَرَهْطِهِ ... بَعْدَ المُغَيَّبِ فِي سَوَاءِ المَلْحَدِ
ضَاقَت بِالأَنْصَارِ البِلادُ فَأَصبَحَت ... سُوداً وُجُوهُهُمُ كَلَونِ الإِثْمِدِ
وَلَقَدْ وَلَدْنَاهُ وَفِينَا قَبْرُهُ ... وَفُضُولُ نِعمَتِهِ بِنَا لَمْ يُجْحَدِ
وَاللَّهُ أَكْرَمَنَا بِهِ وَهَدَى بِهِ ... أَنْصَارَهُ فِي كُلِّ سَاعَةِ مَشْهَدِ
صَلَّى الإِلَهُ وَمَنْ يَحُفُّ بِعَرشِهِ ... وَالطَّيِّبُونَ عَلَى المُبَارَكِ أَحمَدِ[4]

---

١. مفتاح، د. محمد، **تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٣، يوليو ١٩٩٢، ص٥٧-٥٨.

٢. المرجع نفسه، ص٦١.

٣. أبو شريفة، د.عبدالقادر وآخرون، **علم الدلالة والمعجم العربي**، دار الفكر، عمان، ط١، ١٩٨٩، ص٧٨.

٤. الأنصاري، **ديوان حسان بن ثابت**، مصدر سابق، ص١٠١-١٠٢.

هَذَا عَلَى سَبيلِ المِثَالِ لا الحَصْرِ، فَقَد كَثُرَ فِي شِعرِهِ مِثــلُ هَــذَا التَّـــأثُّر بِالألفَاظِ الإسلامِيَّةِ الجَدِيدَةِ فِي مُعجَمِهِ الشِّعرِيِّ مِن حَيثُ الكَمُّ.

وَعَلَى مُستَوَى الحُقُولِ الدِّلاليَّةِ الَّتِي أَشَرنَا إلَيهَا فِيمَا سَبَقَ مِنَ القَولِ يُمكِنُ أنْ نَبحَثَ فِي القَصِيدَةِ المَذكُورَةِ عَن عِدَّةِ حُقُولٍ تَحتَوِي عَلَى كَلِمَاتٍ يجمَعُهَا خَــيطٌ دَلاليٌّ، ويَتَقوَّى بَعضُهَا بِبَعضٍ بَينَما تَنتَمِي إلَى الحَقلِ الدَّلالِيِّ نَفسِه، مَثلاً يُمكِنُنَا إيجَادُ عِدَّةِ أَلفَاظٍ فِي القَصِيدَةِ تَدُلُّ عَلَى أنَّ الرَّسُولَ (ﷺ) (رَحمَةٌ) لِلعَــالَمِينَ، مِنهَا (المَهْدِيّ، خَيرُ مَن وَطِئ الحَصَى، المُهتَدِي، طيِّبــاً، كَرِيمُ المُحتَدِ، المُبَارَكُ، سَعدُ الأسْعُدِ، أضَاءَ، النُّورُ المُبَارَكُ، فُضُولُ نِعمَتِهِ، هَدَى بِهِ، المُبارَك أحمَد).

فَقَد تَرَدَّدتْ كَلِمَاتٌ فِي هَذِهِ القَصِيدَةِ بِنِسَبٍ مُختَلِفَةٍ بِنَفسِــهَا أَو بِمُرَادِفِهَــا أَو بِتَركِيبٍ يُؤَدِّي مَعنَاهَا، إذْ كَوَّنَت حَقلاً دَلالِياً يحُومُ مَعنَاهُ عَلَــى كَــونِ الرَّسُــولِ (ﷺ) رَحمَةً لِلعَالَمِينَ وَهَادِياً لِلبَشَرِيَّةِ، فَلَولا تَأثِيرُ المَضَامِينِ الفِكرِيَّةِ لَمَا وَجَدْنَا اجْتِمَاعَ هَذَا الكَمِّ مِنَ الكَلِمَاتِ وَالتَّعَابِيرِ الدَّالَّةِ عَلَى معنى مُعيَّنٍ، وَالأمثِلَةُ عَلَى هَذَا كَثِيرَةٌ مِمَّا يُثبِتُ تَطوُّرَ المُعجَمِ الشِّعرِيِّ بِفَضلِ المَضَامِينِ الإسْلامِيَّةِ.

٢ ـ الأثَرُ الأُسلُوبِيُّ

يَظهَرُ الأَثَرُ الأُسلُوبِيُّ لِلنَّصّ الشّعرِيّ –بِحَسَبِ كوهين– فِي ابتِكَارِ الصّيَغِ الجَدِيدَةِ غَيرِ المُستَعمَلَةِ مِنْ قَبْلُ، وَمَعنَى الابْتِكَارِ هُنَا أنْ يَلجَأَ الشَّاعِرُ إلَى خَلــقِ مَادَّةٍ جَدِيدَةٍ لِلمُحتَوَى[1]، لأنَّ العَلاقَةَ الَّتِي تَجمَعُ الكَلِمَاتِ فِي المُتَوَالِيَاتِ اللُّغَوِيَّةِ لا تَتَغيَّرُ، فإذَا اغتَرَفَ الفَنُّ الشّعرِيُّ مِنْ أعمَاقِ الأشكَالِ المُســتَعمَلَةِ وَالكلِيشــيَّاتِ الجَاهِزَةِ بِالمَادَّةِ نَفسِهَا، فإنَّهُ يَختَارُ مِنَ الوَقَائِعِ الأُسلُوبِيَّةِ وَيَقتَصِرُ عَلَى الانتِقَاءِ مِنْ

---

١. كوهن، جان، بنية اللغة الشعرية، مرجع سابق، ص٤٤.

بَينِ الأشكَالِ الَّتِي تُوفِّرُهَا اللُّغَةُ[1]، آنَذَاك يَختَفِي الأثَرُ الأُسلُوبِيُّ وَيَختَفِي مَعَهُ الانْزِيَاحُ وَجَمَالِيَّاتُ اللُّغَة الشّعرِيَّة.

أمَّا مُحَاوَلَةُ إيجَادِ أشكَالٍ جَدِيدَةٍ مِنْ خِلالِ مَادَّةٍ جَدِيدَةٍ لِلمُحتَوَى فَهِيَ تُعَدُّ خَلقاً وَتَجسِيداً لِلمَعنَى وَإنْ كَانَتِ العَلاقَةُ قَدِيمَة، مَثَلاً لَو أَخَذنَا عَلاقَةَ التَّشبِيهِ بَينَ طَرَفَيهِ فَإنَّهَا لا تَتَغيَّرُ، إذْ لا بُدَّ مِنْ وُجُودِ مُشَبَّهٍ وَمُشَبَّهٍ بِهِ وَوَجهِ شَبَهٍ بَينَهُمَا، لَكِنَّ مَا يَتَغيَّرُ هُوَ الكَلِمَاتُ الَّتِي تُوضَعُ فِي هَذِهِ العَلاقَةِ لِتَخرُجَ الصُّورَةُ النّهَائِيَّةُ لِلتَّشبِيهِ، وَهَذَا يَنطَبِقُ عَلَى بَاقِي العَلاقَاتِ الأُخرَى مِنَ الاستِعَارَةِ وَالمَجَازِ والإسنَادِ وَغَيرِهَا.

وَمِن ذَلِكَ قَولُهُ (مِنَ الطَّوِيلِ):

وَمَا فَقَدَ المَاضُونَ مِثْلَ مُحَمَّدٍ وَلا مِثْلُهُ حَتى القِيامَةِ يُفْقَدُ[2]

فَقَد عبَّرَ بِكَلِمَاتٍ جَدِيدَةٍ لَم تَكُنْ مَألُوفَةً فِي شِعرِ حَسَّانٍ وَهِيَ نَابِعَةٌ عَنِ المَضَامِينِ الفِكرِيَّةِ الَّتِي دَخَلَتْ شِعرَهُ بَعدَ إسلامِهِ، لَكِنَّ العَلاقَةَ هِيَ عَلاقَةُ تَشبِيهٍ تَجمَعُ تِلكَ الكَلِمَاتِ، وَهِيَ قَدِيمَةٌ مُتدَاوَلَةٌ فِي اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، فالأثَرُ الأُسلُوبِيُّ يَظهَرُ فِي المَادَّةِ الجَدِيدَةِ لِلمُحتَوَى، وَهِيَ الكَلِمَاتُ الدَّالَّةُ عَلَى مَضمُونِ التَّشبِيهِ، وَقَد أعطَى بِذَلِكَ صِفَةَ التَّمَيُّزِ بِلا مُنَازِعٍ لِلرَّسُولِ (ﷺ)، وَجَعَلَهُ الشَّخصَ الوَحِيدَ الَّذِي خَسِرَتِ الإنسَانِيَّةُ بِفُقدَانِهِ، لَيسَ فِي زَمَانِهِ فَحَسبُ، بَل حَتَّى قِيَامِ السَّاعَةِ لاَ يَخرُجُ شَخصٌ لِلبَشَرِيَّةِ يَتَمتَّعُ بِأهَمِّيَّتِهِ، وَلَيسَ هَذَا فَحَسبُ بَلْ حَصَرَ التَّارِيخَ القَدِيمَ وَالحَدِيثَ عَلَيهِ.

---

١. كوهن، جان، بنية اللغة الشعرية، مرجع سابق، ص٤٥.

٢. الأنصاري، ديوان حسان بن ثابت، مصدر سابق، ص٩٨.

مِثَالٌ آخَرُ عَلَى الأثَرِ الأُسلُوبِيِّ النَّاتِجِ عَنِ اللُّغَةِ الشّعرِيَّةِ المُتَأثّرَةِ بِالمَضَامِينِ الفِكرِيَّةِ عِندَ حَسَّانٍ، قَولُهُ (مِنَ الطَّوِيلِ):

لَـكَ الخَلْقُ وَالنَّـعمَاءُ وَالأمـرُ كُلُّـهُ فَإيَّـاكَ نَستَهْدِي وَإيَّـاكَ نَعْـبُدُ[1]

فِي الشَّطرِ الثَّانِي جَسَّدَ حَسَّانُ مُحتَوى جَدِيداً فِي عَلاقَةٍ قَدِيمَةٍ، وَالعَلاقَةُ هِيَ الإسنَادُ القَائِمُ بَينَ الفِعلِ وَالمَفعُولِ بِهِ المُقَدَّمِ عَلَيهِ، وَهَذَا وَارِدٌ فِي اللُّغَةِ وَفِي كَلامِ الشُّعَرَاءِ الآخَرِينَ، لَكِنَّ إبْدَاعَ حَسَّانٍ يَكمُنُ فِي الكَلِمَاتِ الَّتِي وَضَعَهَا فِي تِلكَ العَلاقَةِ، وَهِيَ المُقتَبَسَةُ مِنَ القُرآنِ الكَرِيمِ وَالمُتَعَلِّقَةُ بِالمَضَامِينِ العَقِيدِيَّةِ، فَكَانَ مَعرُوفاً عِندَ العَرَبِ فِي الجَاهِلِيَّةِ طَلَبُ العَونِ مِنَ الأصنَامِ وَعِبَادَتُهُم إيَّاهَا، لَكِنَّ هَذَا تَحَوَّلَ عِندَ حَسَّانٍ إلى حَصرِ العِبَادَةِ عَلَى اللَّهِ سُبحَانَهُ وَالاستِعَانَةِ بِهِ فَحَسبُ، إذاً، الأَثَرُ الأُسلُوبِيُّ الَّذِي يَجذِبُ انتِبَاهَ المُتَلَقِّي نَاتِجٌ عَن إقَامَةِ المَفعُولِيَّةِ مَعَ فِعلِ العِبَادَةِ وَالاستِعَانَةِ وَحَصرِهِمَا عَلَى اللَّهِ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى دُونَ غَيرِهِ.

٣ ـ التَّنَاصُّ

التَّنَاصُّ مَظهَرٌ آخَرُ مِنْ مَظَاهِرِ انعِكَاسِ المضَامِينِ الفِكرِيَّةِ عَلَى شِعرِ حَسَّانٍ، ذَلِكَ مِن خِلالِ تَأسِيسِ عَلاقَةِ استِحضَارٍ لِنُصُوصِ القُرآنِ الَّذِي صَارَ مَصدَرَ الإلهَامِ الشِّعرِيِّ وَالجَمَالِيَّةِ اللُّغَوِيَّةِ لِلشُّعَرَاءِ، فَقَد صَارَ القُرآنُ المَثَلَ الأعلَى لِلشُّعَرَاءِ جَمِيعِهِم فِي أُسلُوبِهِ وَطَرِيقَةِ تَعبِيرِهِ وَإثرَاءِ اللُّغَةِ بِالكَلِمَاتِ وَالدَّلالاتِ الجَدِيدَةِ، وَبِمَا أنَّ القُرآنَ مَصدَرَ المَضَامِينِ الفِكرِيَّةِ الجَدِيدَةِ فَقَد أثَّرَ فِي شِعرِ حَسَّانٍ بِدَلالاتِهِ وَلُغَتِهِ، وَصَارَ التَّعَالُقُ النَّصِّيُّ سِمَةً بَارِزَةً بَينَهُ وَبَينَ شِعرِهِ، وَأكثَرُ أنوَاعِ التَّنَاصِّ استِعمَالاً فِي شِعرِ حَسَّانٍ الاقتِبَاسُ المُبَاشِرُ وَالإحَالَةُ الدَّلالِيَّةُ.

---

١. الأنصاري، ديوان حسان ثابت، مصدر سابق، ص٨٣.

فَالاقتِبَاسُ أكثَرُ الأشكَالِ وُضُوحاً فَهُوَ قَرْضٌ مُعلَنٌ وَحَرفِيٌّ وَحُضُورٌ فِعلِـيٌّ لِنَصّ فِي نَصٍّ آخَرَ[1]، وَصَارَ الاقْتِبَاسُ طَرِيقَةَ الشُّعَرَاءِ الفَنِّيّةَ بَعدَ نُزُولِ القُرآنِ، وَتَكمُنُ أهَمّـيَّتُهُ الشَّكلِيَّةُ -فَضلاً عَن بُعدِهِ الدَّلالِيّ- فِي إثرَاءِ المُعجَمِ الشّـعرِيّ، وَتَركِ الأثَرِ الأُسلُوبِيّ فِي النَّصِّ، عِلاوَةً عَلَى خَلقِ التَّعَـالُقِ النَّصِّـيّ بِطَرِيقَـةِ الاسْتِدعَاءِ الشَّكلِيّ، وَالأمثِلَةُ كَثِيرَةٌ عَلَى هَذَا فِي شِعرِ حَسَّان؛ مِنهَا قَولُـهُ (مِـنَ الوَافِرِ):

وَجِبْرِيـلُ أمِيـنُ اللَّـه فِيـنَـا وَرُوحُ القُـدسِ لَيْسَ لَهُ كَفَـاءُ[2]

وَقَولُهُ (مِنَ الطَّوِيلِ):

وَأنْتَ إلَـهُ الحَـقّ رَبّـي وَخَـالِقِي بِذَلِكَ مَـا عُمِّـرتُ فِي النَّاسِ أشهَدُ
تَعَالَيتَ رَبَّ النَّاسِ عَن قَولِ مَنْ دَعَـا سِواكَ إلهاً أنْتَ أعْلَى وَأمْـجَـدُ
لَكَ الخَلـقُ وَالنَّعمَـاءُ وَالأمـرُ كُلُّـهُ فَإيَّـاكَ نَستَهدِي وَإيَّـاكَ نَعبُـدُ
لأنَّ ثَـوابَ اللَّـهِ كـلَّ جِنَانٌ مِنَ الفِردَوسِ فِيهَـا يُخَلَّـدُ[3]

حُضُورُ الآيَاتِ وَاضِحٌ فِي هَذِهِ الأبيَاتِ بِأُسلُوبِهَا وَألفَاظِهَا وَتَأثِيرَاتِهَا الشَّكلِيَّةِ فَضلاً عَنِ التَّعَالُقِ الدَّلالِيّ، فَلَولا القُرآنُ لَمَا خَرَجَتِ اللُّغَةُ الشّعرِيَّةُ عِندَ الشَّـاعِرِ بِهَذَا الشَّكلِ، وَيَبدُو ذَلِكَ جَلِيّاً عِندَ مُقَارَنَتِهِ بِقَصَائِدِهِ الجَاهِلِيَّةِ.

---

١. مجموعة مؤلفين، **آفاق التناصية المفهوم والمنظور**، ترجمة وتقديم: محمـد خيـر البقـاعي، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، ط١، ١٩٩٨، ص١٣٢-١٣٣.

٢. الأنصاري، ديوان حسان ثابت، مصدر سابق، ص١٦.

٣. المصدر نفسه، ص١٥٤.

وَلا يَقِفُ التَّنَاصُّ مَعَ القُرآنِ عِندَ حَدّ الاقتِبَاسِ المُبَاشِرِ، بَلْ صَارَ أسلُوبُ الشَّاعِرِ كُلُّهُ مُتَأثّراً بِهِ، يَستَوحِي مِنهُ تَعَابِيرَهُ وَيَقيسُ لُغَتَهُ الشّعريَّةَ عَلَيهِ، وَيُمكِنُ التَّأشيرُ عَلَى مَوَاطِنَ عَدِيدَةٍ فِي شِعرِ حَسَّان؛ وهذا يَدُلُّ عَلَى إقَامَةِ عَلاقةٍ غَيرِ مُبَاشِرَةٍ مَعَ آيَاتِ القُرآنِ الكَرِيمِ، تَكفِي الإشَارَةُ هُنَا إلَى قَولِهِ (مِنَ الوَافِرِ):

إذَنْ وَاللَّهِ نَرمِيهِمْ بِحَربٍ تُشِيبُ الطّفلَ مِن قَبلِ المَشِيبِ[1]

فِي هَذَا تَأثُّرٌ وَاضِحٌ بِأُسلُوبِ القُرآنِ الكَرِيمِ فِي التَّعبِيرِ، وَتَنَاصٌّ غَيرُ مُبَاشِرٍ مَعَ الصّيَاغَةِ القُرآنيَّةِ لِلتَّعبِيرِ عَن أهوَالِ القِيَامَةِ الَّتِي تَجعَلُ الولدَانَ شِيباً، فَيَأتِي الشَّاعِرُ يَستَحضرُ هَذِهِ الصّيَاغةَ فِي شِعرِهِ لِقَومٍ يَقَعونَ فِي حَرْبٍ مَعَ المُسلِمِينَ.

وَأخِيراً، لَيسَ مَا ذُكِرَ هَنَا إلا إشَاراتٍ عَابِرةً تُجَسّدُ جَدَلِيَّةَ العَلاقَةِ بَينَ اللُّغَةِ وَالفِكرِ، حَيثُ يُؤثّرُ أحَدُهُمَا عَلَى الآخَرِ، فَلا يُمكِنُ تَطوِيرُ اللُّغَةِ الشّعرِيَّةِ كَقَوالِبَ خَالِيَةٍ مِنَ الأفكَارِ الرَّصِينَةِ، وَلا يُمكِنُ لِفِكرٍ عَمِيقٍ أنْ يَتَجسَّدَ فِي لُغَةٍ رَكِيكَةٍ مَحصُورَةٍ فِي تَعَابِيرَ سَاذِجةٍ غَيرِ دَقِيقةٍ، وَقَد تَحَقَّقَ التَّكَامُلُ بَينَ الجَانِبَينِ بِالفِعلِ فِي شِعرِ حَسَّانٍ بَعدَ تَحَوُّلِهِ مِنَ الجَاهِلِيَّةِ إلَى الإسلامِ.

---

١. الأنصاري، ديوان حسان ثابت، مصدر سابق، ص٤٢.

خَاتِـــمَة

فِي خِتَامِ هَذَا البَحثِ يُمكِنُ تَلخِيصُ الاسْتِنتَاجَاتِ فِي النّقَاطِ الآتِيَةِ:

١ــ تَأثَّــرتِ اللُّغَةُ الشّعرِيَّةُ عِندَ حَسَّانِ بنِ ثَابتٍ بِالمَضَامِينِ الفِكرِيَّةِ الَّتِــي دخلت شِعرَهُ بِفَضلِ إسلامِهِ، فَتطوَّرَت جَوَانِبُ عَدِيدَةٌ مِنْ تِلكَ اللُّغَةِ مِثلَ الاتّسَاعِ فِي المُعجَمِ الشّعرِيّ، وتَكَوُّنِ حُقُولٍ دَلالِيَّةٍ عَدِيدَةٍ فِي قَصَائِدِهِ تَرتَبِطُ بِالمَجَــالاتِ الفِكرِيَّةِ الَّتِي صَارَت مَضَامِينَ شِعرِيَّةً لَدَيهِ.

٢ــ تَغَيَّرَ الأثَرُ الأُسلُوبِيُّ المَترُوكُ عَلَى جُمَلِهِ وَتَعَابِيرِهِ وَصُوَرِهِ الشّــعرِيَّةِ بَعدَ تَوسِيعِ القَاعِدَةِ الدَّلالِيَّةِ بِالمَضَامِينِ العَقِيدِيَّــةِ وَالفِكــرِ الاجتِمَــاعِيّ وَالفِكــرِ السّيَاسِيّ، فَقَد صَارَت مَادَّةُ المُحتَوَى جَدِيدَةً عِندَ تَجسِيدِهَا فِي العَلاقَاتِ الَّتِي تَربِطُ الكَلِمَاتِ بَعضِهَا بِبَعضٍ فِي المُتَوَالِيَاتِ اللُّغَوِيَّةِ، وَهِيَ عَلاقَاتٌ ثَابِتَةٌ فِــي اللُّغَــةِ وَقَدِيمَةٌ فِي الاستِعمَالِ، لَكِنَّهَا جَدِيدَةٌ بِكَلِمَاتِهَا وَمَضَامِينِهَا الجَدِيدَةِ.

٣ــ صَارَ التَّنَاصُّ فِي شِعرِهِ مَعَ القُرآنِ الكَرِيمِ كَثِيــراً، خُصُوصــاً فِــي المَوضُوعَاتِ المُتَعَلِّقَةِ بِالمَضَامِينِ الفِكرِيَّةِ الَّتِي اكْتَسَبَهَا بَعدَ إسلامِهِ، فَصَارَت بِهَا اللُّغَةُ الشّعرِيَّةُ أكثَرَ جَمَالاً وَشِعرِيَّةً بِفَضلِ اتّخاذِ أُسلُوبِ القُرآنِ أنمُوذَجاً يُحتَــذَى فِي التَّعبِيرِ الجَمَالِيّ.

٤ــ تَبَيَّنَ أنَّ العَلاقَةَ الجَدَلِيَّةَ بَينَ فِكرِهِ وَلُغَتِهِ الشّعرِيَّةِ صَارتْ وَطِيدَةً وَأكثَرَ إلحَاحاً، لأنَّ التَّحوُّلَ الفِكرِيَّ الَّذِي حَدَثَ عِندَ حَسَّانٍ أصبَحَ بِحَاجَةٍ إلَى لُغَةٍ أكثَرَ تَطوُّراً وَأُسلُوبٍ أدَقَّ فِي التَّعبِيرِ، لأنَّ المَفَاهِيمَ الجَاهِلِيَّةَ لَمْ تَعُدْ تُكَوّنُ فِكرَهُ وَحَلَّتْ مَحَلَّهَا مَفَاهِيمُ جَدِيدَةٌ إسلامِيَّةٌ، فَأجبَرَهُ هَذَا الحَالُ عَلَى اتّخَاذِ تِقنِيَّاتٍ لُغَوِيَّةٍ جَدِيدَةٍ لِلتَّعبِيرِ عَن الحَالَةِ الجَدِيدَةِ.

٥ــ ظَهَرَتْ أهَمّــيَّةُ البُنيَةِ الدَّلالِيَّةِ العَمِيقَةِ الَّتِي رَسَمَتِ المَلامِحَ الشَّــكلِيَّةَ لِخِطَابِهِ الشّعرِيّ، وَأعَانَتْهُ عَلَى اختِيَارِ أَلفَاظِهِ وَتَعَابِيرِهِ لِتَكُونَ أكثَــرَ دِقَّــةً، لأنَّ المَضمُونَ يَأخُذُ شَكلَ القَالَبِ وَيَتَحدَّدُ بِحُدُودِهِ، كَمَا أنَّ الشَّكلَ يَأخُذُ صُورَتَهُ بِنَــاءً عَلَى مُعطَيَاتِ المَضَامِينِ وَمُتَطلَّبَاتِهَا الدَّلالِيَّةِ.

قَائِمَةُ المَصَادِرِ والمَرَاجِعِ

- أبو شريفة، د.عبدالقادر وآخرون، **علم الدلالة والمعجم العربي**، دار الفكر، عمان، ط١، ١٩٨٩.
- اسليم، د.فاروق أحمد، **الانتماء في الشعر الجاهلي**، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط١، ١٩٩٨م.
- الأنصاري، حسان بن ثابت (٥٤هـ)، **شرح الديوان**، تحقيق: عبدالله سنده، دار المعرفة، بيروت، ط١، ٢٠٠٦.
- الأنصاري، حسان بن ثابت (٥٤هـ)، **ديوان حسان بن ثابت**، شرح: د.يوسف عيد، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
- ضيف، د.شوقي (١٣ مارس ٢٠٠٥)، **تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي**، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٦٣م.
- كوهن، جان (١٩٩٤م)، **بنية اللغة الشعرية**، ترجمة محمد الولي ومحمد العمري، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ١٩٨٦.
- مجموعة مؤلفين، **آفاق التناصية المفهوم والمنظور**، ترجمة وتقديم: محمد خير البقاعي، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، ط١، ١٩٩٨.
- مجموعة مؤلفين، **القيم في الظاهرة الاجتماعية**، تحرير: أ.د.نادية محمود مصطفى وآخرون، دار البشير، القاهرة، ط١، ٢٠١١.
- مفتاح، د.محمد، **تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٣، يوليو ١٩٩٢.
- ملكاوي، د.فتحي حسن، **البناء الفكري مفهومه ومستوياته وخرائطه**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هرندن، فيرجينيا، ط١، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.
- ناصف، د.مصطفى، **نظرية المعنى في النقد العربي**، دار الأندلس، بيروت- لبنان، ط١، د.ت.